القَوْلُ بِالصَّرْفَة عِنْدَ المُعْتَزِلَة

د. سليمان مختار إسماعيل
جامعة مصراتة/كلية الآداب
Smi77512@gmail.com

ملخص البحث:

هذه الورقة البحثية والتي هي بعنوان : " القَوْلُ بِالصَّرْفَة عِنْدَ المعْتَزِلَة " هي محاولة للنظر في وجه من وجوه الإعجاز وهو القول بالصَّرفة. إذ يسعى الباحث إلى دراسة قضية الصرفة في إعجاز القرآن الكريم عند فرقة المعتزلة؛ وذلك بعرض وتعريف أقوال بعض أئمتهم، وكذلك مواقف علماء الإسلام من غير المعتزلة في هذا الشأن.

وقد تم تناول هذا الموضوع في أربعة أقسام رئيسة؛ فبدأ الباحث بتعريف القرآن الكريم لغة واصطلاحاً، وأتبعه بتعريف المعجزة وتبيان معنى الإعجاز، فذكر وجوه الإعجاز إجمالا، ثم عرّف المعتزلة على أنها فرقة من أكثر الفرق الإسلامية دفاعا عن القرآن وحديثا عن الإعجاز حديثا علميا مستندا إلى الأدلة العقلية، وأكثر من عُرف عنهم القول بالصرفة فأتى على معنى الصرفة عندهم، ثم وقف عند خمسة من أشهر أئمتهم القائلين بالصرفة وهم: النظام، والجاحظ، والرماني، والقاضي عبد الجبار، والزمخشري، ثم ذكر أقوالهم ورؤاهم المتشابهة أحيانا والمتباينة أحيانا أخرى في قضية الصرفة. وأوضح الباحث في الختام وجوه بطلان القول بالصرفة قائلا إنه رأي مرفوض عند علماء المسلمين معتزلة وسنة، وبيّن أسباب ذلك في نقاط عِدة تُبطل القول به وتثبت أنه تهافت باطل فاسد، كما أن في نسبته إلى فرقة المعتزلة ظلم وافتراء؛ فهو وإن كان قد عرف عن بعض أئمتهم فمنهم من رده ورفضه معتقدا أن الإعجاز في القرآن هو في بلاغته ونظمه وما جاء فيه من الغيبيات. وأنهى الباحث ورقته بالإشارة إلى المصادر والمراجع المختلفة التي اعتمدت عليها دراسته .

Al Sarfah Issue in Mu'tazila School

Dr. Suleiman M. Ismael

Abstract

This research paper, which is entitled "Al Sarfah Issue in Mu'tazila School" is an attempt to examine one type of Koran's miracles. This issue was discussed in many sections. The first section had dealt with Koran's definition, the meaning of miracles in general and the Koran's miracle precisely. Then, the researcher had mentioned Mu'tazila school and defined it as a school of Islamic theology which is best known for accepting the idea of Al Sarfah Issue. The next section was devoted to five of Mu'tazila scholars who had supported the idea of Al Sarfah, they are: An-Nazzam, Al-Jāḥiẓ, AR-Rummani, Abd al-Jabbar Ibn Ahmad and Al-Zamakhshari. In conclusion, the researcher pointed out that Al-Sarfah issue is void and he explained the reasons for that invalidity at several points. Besides, he emphasized that the attribute of Al Sarfah to Mu'tazilites is injustice and fabrication. Finally, the research is concluded with a list of references upon which it relied.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصلاة والسلام على من ختم الله به الرسالات وأيده بالمعجزات، محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد: فإن قضية إعجاز القرآن الكريم قضية واسعة المباحث متعددة الزوايا، قديمة متجددة، ومع هذا فإن البحث فيها وإعادة طرق بابها أمر شائق جذاب لا يُمَلُّ، فلا يكاد يقضي الدارس منه وطره؛ ولو أنفق فيه عمره.

وفي هذا البحث محاولة للنظر في وجه من وجوه الإعجاز وهو " القول بالصَّرفة "، كوجه من وجوه الإعجاز، وهو الذي قال به أناس ممن وقفوا عند دراسة إعجاز القرآن الكريم ومنهم بعض علماء المعتزلة، ففي هذا البحث عرض لهذا الرأي وتعريف ببعض من قال به من المعتزلة، ومواقف علماء الإسلام من غير المعتزلة من هذا القول، ولست أدعي السبق في طرق هذا الباب ولا الابتكار في طرحه ومناقشته؛ فإن كثيرا من كتب إعجاز القرآن الكريم قد عرضت لهذا الموضوع بصور مختلفة، وإنني على وعي بالدراسات السابقة، ومع ذلك فأرى أهمية إعادة بحثه وتناوله، فإن تناول السابقين لا يمنع اللاحقين البحث والدراسة.

وقبل ولوج هذا الباب والدخول فيه أستحسن أن أبدأ ولو بقول موجز مختصر بتعريف للقرآن الكريم، ثم أعرف بالمعجزة وأبين معنى الإعجاز ، وأتبع ذلك بذكر وجوه الإعجاز إجمالا، ثم أعرِّف بالمعتزلة، وبمعنى الصرفة عندهم من خلال خمسة من أشهر أعلامهم وهم: النظام، والجاحظ، والرماني، والقاضي عبد الجبار، والزمخشري، وأنهي البحث بنتيجة أخلص إليها، وثبت بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها.

معجزة القرآن والتحدي :

بداية ما هو القرآن الكريم؟ لقد وقف كثير من العلماء عند تعريف القرآن الكريم، ولما اختلفت زوايا نظرهم وتباينت مناهج بحثهم ومدارسهم التي يصدرون عنها، والحصيلة العلمية والثقافية التي معهم، اختلفت تعريفاتهم للقرآن الكريم.

فالقرآن في اللغة مرادف للقراءة، قال تعالى: **{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ}(سورة القيامة الآية 17. 18)**، ثم نقل هذا المعنى المصدري وجعل اسما للكلام المعجز المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم من باب إطلاق المصدر على مفعوله، فلفظ قرآن مهموز، وإذا حذفت همزته فإنما ذلك للتخفيف، وإذا دخلت أل بعد التسمية فإنما هي للمح الأصل لا للتعريف. (**ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان، 1\14**).

هذه خلاصة ما اختاره العلماء استنادا إلى موارد اللغة وقوانين الاشتقاق، وما ذهب إليه بعضهم من أن لفظ "قرآن" وصف من القرء بمعنى الجمع، أو أنه مشتق من القرائن، أو من قرنت الشيء بالشيء، أو أنه مرتجل موضوع من أول الأمر علما على الكلام المعجز المنزل، غير مهموز ولا مجرد من "أل"، فإن كل هذه الآراء لا تخلو من تكلف في توجيهها، وبعد عن قواعد الاشتقاق، وموارد اللغة. (**ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان،1\14**).

وأما في الاصطلاح فقد عرف بأكثر من تعريف، فمن تعريفاته: " أنه كلام الله تعالى المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بالتواتر، المكتوب في المصاحف من أول الفاتحة إلى آخر الناس" (**عبيدات، دراسات في علوم القرآن،1990، ص:11 . 12**).

ومن تعريفاته أيضا أنه: "اللفظ المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم من أول الفاتحة إلى آخر الناس". (**الزرقاني، مناهل العرفان، 1\17**).

كما يطلق القرآن على النقوش المرقومة بين دفتي المصحف(**الزرقاني، مناهل العرفان،1\18**).

وقد أراد الله تعالى أن يكون هذا القرآن معجزة لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فهو ككل معجزة أمر خارق للعادة أظهره الله على يد نبيه تصديقا له في دعواه ، فكانت هذه المعجزة بمنزلة قوله سبحانه "صدق عبدي فيما يبلغ عني" .

وإن من حكم الله البالغة أن جعل معجزة كل نبي من جنس ما نبغ فيه القوم الذين أرسل إليهم ليكون ذلك أبلغ في التحدي ، وإقامة الحجة عليهم.

ولقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم؛ فدعا قومه إلى توحيد الله تعالى وترك ما هم عليه من الضلال والانحراف، فعموا وصموا عن سماع دعوة الحق، وأصروا واستكبروا استكبارا، وتمسكوا بباطلهم وعارضوا النبي صلى الله عليه وسلم، فجاءهم بالدليل والبرهان على صدقه في دعوته وفيما جاء به عن ربه، وأظهر الله تعالى على يديه كثيرا من المعجزات، كان أعظمها وأبقاها على مر الدهور القرآن الكريم .

تحدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن البشر جميعا عربا وعجما، بل تحدى الثقلين إنساً وجناً، تحدى من كان في زمانه ومن يأتي من بعده إلى قيام الساعة، تحدى العرب وهم من هم يومها فصاحة وبلاغة وبيانا، تحداهم بلغتهم وكلامهم وحروفهم التي يؤلفون بها قولهم، وينسجون بها شعرهم وخطبهم ومنافراتهم ومفاخراتهم وحكمهم وأمثالهم وجميع فنونهم، وهم أرباب القول وأهل اللَسن والدراية بالميدان والآلة وموضوع النزال، تحداهم وتدرج معهم في التحدي فطالبهم بأن يأتوا بمثل القرآن كله، قال تعالى: {**أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لاَ يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ**}(سورة الطور، الآيتان: **31 . 32**)، فلما عجزوا خفف عنهم في الطلب والتحدي فطالبهم بعشر سور فقال تعالى: {**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**}،(سورة هود، الآية:13)، فلما عجزوا زاد في تحديه لهم مع التخفيف في الطلب فطالبهم بسورة واحدة من مثل القرآن فقال سبحانه :{ **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** }(سورة البقرة، الآية:22) ، فلما عجزوا مع قيام دواعي المعارضة، ـ وهو رد ما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ سجل عليهم القرآن هذا العجز فقال تعالى: {**قُلْ**

لَئِن اجْتَمَعَتْ الإنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}(سورة: الإسراء، الآية :88).

إن داعي المعارضة كان قائما عند العرب لو استطاعوا، فقد أراقوا الدماء وضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل رد دعوة القرآن والوقوف في وجهها، فلو كان بإمكانهم أن يأتوا بشيء من مثل القرآن لما ترددوا، وقد سجل التاريخ عن أناس حاولوا المعارضة وحسبوا أنهم يستطيعونها، فجاءوا بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم، بل نزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة بادٍ عواره، باقٍ عاره وشناره، فسخر منه من سمعه، وكان مثلا وموعظة للآخرين، كالذي صدر عن مسيلمة الكذاب، فقد كان يعمد إلى آي من القرآن الكريم فيسرق أكثر ألفاظها ويبدل بعضها ثم يدعيها لنفسه، كقوله:(إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر)، أو أن يجيء على موازين الكلمات القرآنية بألفاظ ومعان سوقية ، كقوله: (والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا والخابزات خبزا)، فلم يستطع وهو عربي قح أن يحتفظ بأسلوب نفسه بله أن يرقى إلى الأسلوب القرآني، وإنما أتى بما يشبه كلام الصبيان في مداعباتهم(**دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، 1988، ص:81 ، 82.**).

وجه الإعجاز في القرآن الكريم :

لا خلاف بين العلماء في أن القرآن معجز ،وأن الخلق قد عجزوا عن الإتيان بمثله ،وإنما الخلاف بينهم في جهة الإعجاز، فكلٌ رأى الإعجاز من ناحية، لأنهم نظروا إليه من عدة زوايا، فكل ما في القرآن معجز، حتى إن بعض العلماء خطّأ من يسأل فيقول : أين موضع الإعجاز في القرآن ؟ وقال : إن القرآن لا يسأل عن موضع الإعجاز فيه؛ لأن كل شيء فيه؛ معجز(**السيد صالح، المعجزة والإعجاز في القرآن، 1993، ص:83**).

وفصل بعضهم هذا الإجمال ولم يكتف بقوله إن كل ما في القرآن معجز، فقال فريق من العلماء إن القرآن معجز ببلاغته ، وقال آخرون ببيانه وفصاحته، وذهب قوم إلى أن الإعجاز فيه راجع إلى نظمه وأسلوبه الخاص، وقال آخرون: إنما يرجع إعجازه إلى تأثيره في القلوب

والنفوس ، وقال جماعة: إنه معجز بما يحويه من الإخبار عن المغيبات، ورأى بعض المتأخرين من الباحثين في المعجزات العلمية التي حواها دليل على أنه من عند الله تعالى ، وكل هذه وجوه صالحة لإثبات إعجازه ، فإعجازه لا يتناهى عند حد ، ولكن تمت وجه آخر ـ هو المقصود بالبحث هنا ـ رآه جماعة وعدوا مكمن الإعجاز فيه، وهو الصرفة ، فإن بعض علماء المعتزلة ادعى أن إعجاز القرآن كان بالصرفة على تفصيل متفاوت بينهم في فهم معنى الصرفة كما سيأتي.

معنى الصَّرْفَةَ لغة واصطلاحا :

الصَّرْفَة ـ بفتح الصاد ـ رد الشيء عن وجهه ، قال تعالى : **{وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُون}**(**سورة التوبة، الآية: 128**)، أي رجعوا عن المكان الذي استمعوا فيه، وقيل انصرفوا عن العمل بشيء مما سمعوا ،صرف الله قلوبهم أي أضلهم الله مجازاة على فعلهم(ابن منظور، لسان العرب، مادة ص. ر . ف).

وفي اصطلاح المتكلمين القائلين بها : "هي أمر إلهي خارق للعادة أجراه الله تعالى على يد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم دليلا على صدقه في دعواه النبوة ، وهو أن الله تعالى صرف همم العرب عن معارضة القرآن مع تحديهم أن يأتوا بسورة من مثله ، ولو لم يصرفهم لجاءوا بمثله"(**عمار، نظرية الإعجاز القرآني، 1998، ص: 43**) .

وقد اشتهر القول بالصرفة عن فرقة المعتزلة ونسب إليهم ، وهم من أكثر الفرق الإسلامية دفاعا عن القرآن والعقيدة فقد تحدثوا عن الإعجاز حديثا علميا يستند إلى الأدلة العقلية ، ويوضح ما فيه من أنماط الصياغة وروعة التراكيب،(**عمار، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز، 1988، ص:16**)،وتنسب هذه الفرقة إلى "واصل بن عطاء" الذي اعتزل مجلس الحسن البصري في أواخر العهد الأموي بسبب الخلاف في حكم مرتكب الكبيرة(**شريف، معجم الفرق الإسلامية،1986، ص:227**)، فكانت إجابة واصل عن هذه المسألة أن

مرتكب الكبير ليس مؤمنا مطلقا ولا كافرا مطلقا ، ولكنه منزل بين المنزلتين، وأنه مخلد في النار، واعتزل مجلس أستاذه؛ فكان ذلك سببا في تسميته ومن تبعه بهذا الاسم .

وسأقف فيما يلي عند خمسة من أشهر أئمة المعتزلة القائلين بالصرفة ، وهم :

1 . النظام ، ت (231هـ) .

2 . الجاحظ ، ت (255 هـ) .

3 . الرماني ، ت (384 هـ) .

4 . القاضي عبد الجبار ، ت (415هـ)

5 . الزمخشري ، ت (538 هـ)

1 **. النظام** :هو إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري أبو إسحاق النظام ، من أئمة المعتزلة ، قال عنه الجاحظ : " الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا مثيل له ، فإن صح ذلك فأبو إسحاق من أولئك، تبحر أبو إسحاق في علوم الفلسفة ، واطلع على كثير مما كتبه رجالها، وانفرد بآراء خاصة تابعه فيها فرقة من المعتزلة سميت النظامية نسبة إليه"(**الزركلي، الأعلام،1989، 1\43، وانظر العربي، إسماعيل، معجم الفرق، ص:373**) .

ورأي النظام وقوله بالصرفة نقله عنه العلماء، منهم بدر الدين الزركلي، إذ يقول تحت عنوان: بيان الأقوال المختلفة في وجوه الإعجاز، وقد اختلف فيه على أقوال، فصدر كلامه برأي النظام فقال: "أحدها وهو قول النظام: "إن الله صرف العرب عن معارضته، وسلب عقولهم، وكان مقدورا لهم لكن عاقهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات"(**الزركشي، 2006، ص: 385**)، كما نقل رأي النظام أصحابه الذين عرفوه، أما كتبه فلم يصل إلينا شيء منها، (**أبوريدة، إبراهيم بن سيار وآراؤه الكلامية،1946،ص: 34**)، وممن نقل آراءه تلميذه الجاحظ، فقد ورد في كتابه حجج النبوة قوله : " كتبت للناس كتابا جهدت فيه نفسي وبلغت فيه أقصى ما يمكن مثلي من الاحتجاج للقرآن، والرد على الطعان، فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر، ولا لمنافق ، ولا لأصحاب النظام، ولا لمن نجم بعد النظام،

ممن يزعم أن القرآن حق وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل وليس ببرهان "(**الجاحظ، حجج النبوة ضمن رسائل الجاحظ الكلامية، 1987، ص: 166**) .

وحكى عنه الأشعري في مقالات الإسلاميين أنه قال : " الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الأخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم "(**الأشعري ، مقالات الإسلاميين، 1994، ص:120**) .

وفي كتاب الفرق بين الفرق يقول البغدادي : " الفضيحة الخامسة عشر من فضائحه ـ والحديث هنا عن النظام ـ قوله إن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته؛ فإن العباد قادرون على مثله وما هو أحسن منه في النظم والتأليف"(**البغدادي، الفرق بين الفرق،1995، ص: 143**) .

وفي هذا عناد منه، لقوله تعالى: { **قُلْ لَئِن اجْتَمَعَتْ الإنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** }(سورة الإسراء، الآية: 88) ولم يكن غرض منكر إعجاز القرآن إلا إنكار نبوة من تحدى العرب بأن يعارضوه بمثله، (**البغدادي، الفرق بين الفرق، 1995، ص:143**) .

وأما الخياط في كتابه الانتصار فإنه لم يصرح بإنكار ما نسب إلى النظام من إنكار الحجة في نظم القرآن وتأليفه ، وهو يقول إن القرآن عند النظام حجة للنبي صلى الله عليه وسلم من وجوه ، مثل ما فيه من الإخبار عن الغيوب ، وإخباره بما في نفوس قوم، وبما سيقولونه، (**الخياط، الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد،1988، ص:68**).

ويتبين لنا مما تقدم أن المنسوب للنظام ليس رأيا واحدا، فبعض المؤلفين لا ينسب إليه الصرفة صراحة، وبعضهم يجمع فيما ينسبه إليه بين الإخبار بالغيب وبين الصرفة أو الإعجاز بعجز أحدثه الله في العرب. (أبو ريدة، إبراهيم بن سيار وآراؤه الكلامية،1946، ص: 35).

2 ـ **الجاحظ** :

هو عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان ، المشهور بالجاحظ، كبير أئمة الأدب ورئيس الفرقة الجاحظية(العربي، إسماعيل، معجم الفرق،1993، ص:101)من المعتزلة، من أشهر مؤلفاته : الحيوان، والبيان والتبيين، والبخلاء ،والمحاسن والأضداد. (**الزركلي، الأعلام،1989، 5\ 74**).

لقد أثير حول رأي الجاحظ في الإعجاز الكثير من الكلام ، فمن قائل إنه يقول بالصرفة ، ومن قائل إنه يقول بالنظم، ومن قائل إنه يقول بهما معا ،يقول عنه الرافعي: " أما الجاحظ فإن رأيه في الإعجاز كرأي أهل العربية، وهو أن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها ..."، ثم قال: " غير أن الرجل كثير الاضطراب، فإن هؤلاء المتكلمين كأنما كانوا في عصرهم في مُنْخُل ...، ولذلك لم يسلم هو أيضا من القول بالصرفة وإن كان قد أخفاها وأومأ إليها في عُرض" (**الرافعي، إعجاز القرآن، 1990، ص:174**)

ولو رجعنا إلى مؤلفات الجاحظ لتأكد لدينا هذا الاضطراب أكثر ،ففي كتاب الحيوان ما يشير إلى أنه يقول بالصرفة وإن لم يكن هذا القول صريحا ،فعند حديثه عن موسى بن عمران ومن كان معه في التيه قال: " ..... كانوا أمة من الأمم يتسكعون أربعين عاما في مقدار فراسخ يسيرة ولا يهتدون إلى المخرج ، وما كانت بلاد التيه إلا ملاعبهم ومنتزهاتهم ، ولا يعدم مثل ذلك العسكر الأدلاء ، والجمالين، والمكارين، والفيوج ، والرسل، ولكن الله صرف أوهامهم ،ورفع ذلك الفضل عن صدورهم"(**الجاحظ، كتاب الحيوان، 1988، 4\89**).

ثم إن الجاحظ شبه بهذا الصرف الذي ألقاه الله على بني إسرائيل صرف الله للشياطين الذين يسترقون السمع .... إلى أن قال: "ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول بنظمه ، ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه، ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب، والنساء، وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب ولكثر القيل والقال، فقد رأيت مسيلمة وأصحاب بن النواحة إنما تعلقوا

بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام، الذي يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه، وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه فكان لله ذلك التدبير، الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له" (**الجاحظ، كتاب الحيوان،1988، 4\89**).

ويبدو أن الصرفة عند الجاحظ تختلف عن الصرفة عند النظام، ولذلك رد عليه ورفضها؛فعند النظام لولا الصرفة لجاءوا بمثل القرآن وبما هو أحسن منه نظما وتأليفا، أما عند الجاحظ فلولا الصرفة لطمعوا في الإتيان بمثله، ولو طمع فيه بعضهم وتكلفه فجاء بأمر فيه أدنى شبهة، لعظمت القصة في الأعراب وأشباه الأعراب والنساء ... ولكثر القيل والقال، فالصرفة عند الجاحظ لقطع باب اللجاجة بالباطل لأدنى شبهة يتعلق بها من لا حاجز له من تمكن الدين كالأعراب، ومن لا تأمل له كالنساء(عمار، نظرية الإعجاز القرآني،1998، ص: 65).

وفي بعض كتابات الجاحظ نجده يرجع الإعجاز إلى نظم القرآن وتأليفه، جاء في الرسائل الكلامية قوله: "ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان ، ومعد بن عدنان ... "(**الجاحظ، رسائل الجاحظ، ،1987، ص: 131**).

3 ـ الرماني :

هو علي بن عيسى بن علي بن عبد الله أبو الحسن الرماني، باحث معتزلي مفسر، من كبار النحاة، له مصنفات كثيرة منها : الأكوان ، والأسماء والصفات، وشرح سيبويه والنكت في إعجاز القرآن(الزركلي، الأعلام،1989، 4\317)، وهو ممن قال بالصرفة، فقد ذكر في كتابه النكت في إعجاز القرآن أن وجوه إعجاز القرآن من سبع جهات: "ترك المعارضة مع توفر الدواعي، وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه لكل معجزة،... ثم يقول: "وأما الصرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول"(**الرماني، النكت في إعجاز القرآن،1968، ص: 110**).

فالرماني جعل رسالته كلها للحديث عن إعجاز القرآن البلاغي، باستثناء الصفحتين الأخيرتين، لهذا فقد شك بعض الباحثين في صحة نسبة هذا الرأي إليه، يقول سعد الدين السيد صالح: "وغريب هذا الكلام على الرماني، وهو الذي أشار إلى إعجاز القرآن بالنظم والبلاغة، وهما وجهان لا يمكن الجمع بينهما . النظم والصرفة، ولذلك دافع عنه بعضهم وقال إن هذا الكلام عن الرماني ليس رأيه وإنما أراد به أن يحكي رأي جماعته من المعتزلة ، أما هو فيرى أن القرآن معجز بنظمه(**صالح، المعجزة والإعجاز، 1993، ص:12**)، فرأي الرماني في إعجاز القرآن أقرب إلى أهل السنة منه إلى المعتزلة.

4 . القاضي عبد الجبار :

هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني، قاض أصولي ،كان شيخ المعتزلة في عصره، وهم يلقبونه قاضي القضاة ولا يطلقون هذا اللقب على غيره، له تصانيف كثيرة، منها تنزيه القرآن عن المطاعن، وشرح الأصول الخمسة ، والمغني في أبواب التوحيد والعدل ، وتثبيت دلائل النبوة (**الزركلي، الأعلام،1989، 3\273**) .

ويمثل القاضي عبد الجبار الرأي الرافض للصرفة، فقد رد على القائلين بها وأبطل رأيهم في كتابه المغني، وكذلك رد عليهم وناقشهم في كتابه: تنزيه القرآن عن المطاعن، ومع هذا فإن له في بعض كتبه من القول ما يجعل العلماء يصنفونه ضمن القائلين بها، يقول القاضي عبد الجبار: " ثم بين تعالى عظم شأن القرآن بقوله { **قُلْ لَئِن اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** }(سورة **الإسراء، الآية:88**) فنبه بذلك على أن له من الرتبة في الفصاحة ما لم يدركه العباد انفردوا أو اجتمعوا، ولو كانوا يقدرون عليه وإنما صرفوا عنه، لم يكن لهذا القول معنى "، ويقول في إعجاز القرآن ـ كما ينقل عنه منير سلطان ـ: " إن دواعيهم انصرفت عن المعارضة لعلمهم بأنها غير ممكنة على ما دللنا عليه ،ولولا علمهم بذلك لم تكن لتنصرف دواعيهم، لأنا نجعل انصراف دواعيهم تابعا لمعرفتهم بأنها متعذرة".(**سلطان، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، 1986، ص:90. 91**) .

وقد دافع القاضي عبد الجبار عن القرآن والنبوة ، وشرح رأيه في إعجاز القرآن، فبين أن القرآن بالإضافة إلى إعجازه البلاغي معجز بزوال الاختلاف والتناقض عنه، وأنه معجز بتضمنه الإخبار عن الغيوب، وأن أظهر ما يتبين به شأن الإعجاز أنه لا وجه يطعن به الملاحدة، وسائر من خالف نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، إلا وهو غير قادح في كونه معجزا (**سلطان، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة،1986، ص: 251**) .

5 ـ الزمخشري :

هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري جار الله، من أئمة العلم بالدين، والتفسير، واللغة، والآداب، من أشهر كتبه الكشاف في تفسير القرآن، وأساس البلاغة، والمفصل، كان معتزلي المذهب مجاهرا شديد الإنكار على المتصوفة، أكثر من التشنيع عليهم في الكشاف وغيره (**الزركلي، الأعلام، 1989، 7\178**) .

والزمخشري لا يقول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم، بل وجه الإعجاز عنده صدقه في الإخبار عن الغيوب، وما يحويه من نظم، يقول رحمه الله عن النظم: " هو أم إعجاز القرآن والقانون الذي وقع عليه التحدي ،ومراعاته أهم ما يجب على المفسر" (**الزمخشري ، الكشاف، 1983، 2\24**) .

ويقرر الزمخشري في مقدمة تفسيره إنه " لابد من علم البيان والمعاني لإدراك معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة لطائف حجته" (الزمخشري، الكشاف، 1983، 1\8) .

ومن يرجع إلى تفسير الزمخشري للقرآن يدرك أن أساس الإعجاز عنده هو البلاغة وحسن النظم، فهو يقول في تفسير قوله تعالى:{**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**}(سورة يونس، الآية:36)، يقول رحمه الله تعالى " أي فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن مع علمهم

ببطلان قولهم، وأنه ليس بمتقول لعجز العرب عنه ، وما محمد إلا واحد من العرب ... وإن قدر محمد على نظمه كان غيره قادرا عليه " (الزمخشري، الكشاف،4،1983\25) .

وأما في تفسير قوله تعالى :{ **قُلْ لَئِن اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** }(**سورة الإسراء، الآية:88**)، فيقول: " أي لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان لعجزوا عن الإتيان بمثله" (**الزمخشري، الكشاف،1983، 2\465**).

وبعد ذكري لهؤلاء الأعلام من أئمة المعتزلة يتبين لي أن نسبة القول بالصرفة إلى المعتزلة كلهم فيه ظلم لهم وعدم دقة في البحث، فإن من المعتزلة من لم يقل بالصرفة، بل ردها ورد على القائلين بها، وبعضهم لم يقتصر عليها وإنما عدها وجها من وجوه الإعجاز الكثيرة، والذي يظهر لي أن القول بالصرفة فكرة وافدة على العرب وأنه لما كان المعتزلة أكثر احتكاكا واطلاعا على ما ترجم إلى العربية من أفكار الأمم المجاورة؛فقد تأثروا بها ونسبت إليهم، والقول بالصرفة واحد من هذه الأفكار فقد كانت موجودة عند البراهمة، ففي كتاب (تحقيق ما للهند من مقولة) للبيروني أن الهنود قد نسبوا إلى الله تعالى كلاما صار عندهم مقدسا وقد اختلفوا في إعجازه فمنهم من يقول إن إعجازه في نظمه، إن نظمه مخالف للنظم المعروف، ومنهم من يرى أنه في مقدورهم ، ولكنهم ممنوعون منه احتراما(صالح، المعجزة والإعجاز،1993، ص: 155).

وجوه بطلان القول بالصرفة :

تصدى كثير من العلماء للقول بالصرفة وأبطلوه وردوا على القائلين به، فهو قول مرفوض عند علماء المسلمين معتزلة وسنة، وممن كشف جوانب الخطإ فيه الإمام عبد القاهر الجرجاني في رسالته الشافية التي خصصها لموضوع التحدي، وأفرد فصلا كاملا في الذي يلزم القائلين بالصرفة، فأبطل فيه مذهبهم بردود كافية شافية ملخصها (**صالح، المعجزة والإعجاز،1993،ص: 75ـ 77، وانظر: الجرجاني،دلائل الإعجاز،2004، ص: 575**).

1 . يلزم من القول بالصرفة أن العرب تراجعت حالهم في البلاغة والبيان ، وفي وجوه النظم وشرف اللفظ، وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون .

2 . أن تكون أشعارهم التي قالوها وكلامهم الذي صاغوه بعد التحدي قاصرا عما سمع منهم من قبل قصورا شديدا.

3 . أن يُشَك في الذي روي في شأن حسان من نحو قوله عليه الصلاة والسلام: " قُلْ وَرُوحُ القُدُسِ مَعكَ" . رواه البخاري ولفظه عنده "أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لحسان أهجهم أو قال هاجهم وروح القدس معك "، وروى البخاري حديثا آخر في هذا الموضوع عن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع حسان بن ثابت يستشهد أبا هريرة رضي الله عنه فيقول : يا أبا هريرة نشدتك بالله هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يا حسان أجب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أيده بروح القدس " قال أبو هريرة نعم" (**انظر: العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، كتاب الأدب ، باب هجاء المشركين، مج : 11، ج : 22، ص : 187 . 188**)؛ لأنه لا يكون معانا مؤيدا من عند الله، وهو يعدم ما كان يجيده قبل ذلك .

4 . كما يلزمهم أن يقضوا في النبي صلى الله عليه وسلم بما يقضون به في العرب من دخول النقص في فصاحته، وأن تكون النبوة قد منعت شطرا من بيانه، وكثيرا مما عرف له قبلها من شرف اللفظ وحسن النظم، وهو باطل .

5 . كان ينبغي أن يعرف العرب ذلك من أنفسهم وأن يحسوا بأنهم نقصوا عما كانوا عليه، ولو كان لشكوه وذكروه ، لكنه لم يرو عنهم مما يدل على فساد هذا الرأي .

6 . إن القول بالصرفة لا يجتمع مع التحدي إذ في ذلك نسبة العبث إلى الله تعالى ، فهو كقول الشاعر:

أَلْقَاهُ فِي اليَمِّ مَكْتُوفاً وَقَالَ لَهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ

وممن قال بفساد هذا القول: بدر الدين الزركشي فبعدما نقل رأي النظام في الإعجاز أتبعه بقوله: وهو قول فاسد بدليل قوله تعالى: {**قُلْ لَئِن اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى**

أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}(سورة الإسراء الآية: 88)، فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى بكبير يحتفل بذكره،هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن فكيف يكون معجزا غيره وليس فيه صفة إعجاز، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم قدرتهم عن الإتيان بمثله(**الزركشي ، البرهان في علوم القرآن، 2006، ص: 285**).

ثم يضيف قائلا : ويلزم من القول بالصرفة فساد آخر، وهو زوال الإعجاز بزوال زمن التحدي وخلو القرآن من الإعجاز، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة، فإنهم أجمعوا على بقاء معجزة الرسول العظمى، ولا معجزة له باقية سوى القرآن، وخلوه من الإعجاز يبطل كونه معجزة(**الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 2006، ص:385**) .

فالقول بالصرفة قول باطل وساقط ، وفي غاية البعد والتهافت، وفي نسبته إلى المعتزلة كلهم ظلم وعدم دقة؛فإنه وإن عرف عنهم واشتهر فمن علمائهم وأئمتهم من رفضه ورد على القائلين به وفند آراءهم، وقال بأن الإعجاز القرآني يكمن في بلاغته ونظمه وصياغته ،إضافة إلى ما فيه من أخبار عن المغيبات.

المصادر والمراجع :

1 . القرآن الكريم .

2. الأشعري، أبو الحسن، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن الأشعري، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ط1، 1994، الحكمة السورية .

3. الأمين، شرف يحيى، معجم الفرق الإسلامية ، ط ، دار الأضواء ،1986.

4. البغدادي، عبد القاهر بن محمد، الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط، المكتبة العصرية ،صيدا بيروت ، 1416 هـ ،1995م .

5. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ الكلامية، قدم لها وبوبها وشرحها علي أبو ملحم، ط1 ، دار الهلال ، 1987 .

6. . الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، كتاب الحيوان ن، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ودار الفكر للطباعة والنشر ، 1988.

7. الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة ، 2004.

8. الخياط، أبو الحسن عبد الرحيم، الانتصار والرد على بن الراوندي الملحد، تقديم ومراجعة محمد حجازي ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1988م.

9. دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، ط3 ، دار القلم ، 1988 م.

10. الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، 1410هـ، 1990.

11.. الرماني، علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن، ضمن كتاب ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ط2 ، 1968.

12. أبو ريدة، محمد عبد الهادي، إبراهيم بن سيار وآراؤه الكلامية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، 1946م.

13. الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
14. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث القاهرة، 1427هـ، 2006م.
15. الزركلي، خير الدين، الأعلام (قاموس تراجم) ، دار العلم للملايين، ط8، 1989م.
16. الزمخشري، محمود جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، ط2، 1983.
17 . سلطان، منير، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، منشأة المعارف الإسكندرية ط3،1986.
18. صالح، سعد الدين السيد، المعجزة والإعجاز في القرآن، ط، دار المعارف، 1993 م.
19. عبيدات، محمد سالم، دراسات في علوم القرآن، ط1 ، دار عمار الأردن ، 1990 .
20. العربي، إسماعيل، معجم الفرق والمذاهب الإسلامية ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، المغرب، الطبعة الأولى ، 1413هـ ، 1993م .
21. عمار، أحمد سيد، نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، ط1 ،1998 ، دار الفكر المعاصر بيروت ، ط1، 1998
22. عمار، فتحي أحمد، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز ، منشأة المعارف ، مصر ، 1988م.
23 . العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، المجلد الحادي عشر ، الجزء الحادي والعشرين ، دار الفكر بيروت .
24– ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت .